قدرة التعاطف معها. «شخصية» ليس بامكان الانسان أن يحبها أو يكرهها أو يصغي إليها، فهي تطرح نفسها أمامنا كفكرة مجردة، مرسومة بصرامة ذهنية.

تعبر العجوز عن فكرة الزمن، فهي الماضي المهزوم والحاضر العاجز حتى لحظة الاجهاز عليها. انها الزمن العاجز على أن يتحول إلى مستقبل... «الماضي هو شبابك، أيامك الخضراء، الماضي هو أنت قبل أن تصبحين هذه. أنت الآن غريبة عن نفسك، ومع هذا فلم تكوني يوماً أنت. نعم، أردت أن أكون المستقبل، ولكن... آه يا الهي! أي مستقبل ينتظرني!» (ص٤٠).

هذه الفكرة للماضي التي يمثل الحاضر ذروة عجزها، هي التي تتحرك أمامنا متقمصة بدن امرأة عجوز لا تملك ملامحها الذاتية هي كانسانة.

ولا تجد هذه «الشخصية – الفكرة» نقيضها الا في «شخصية – فكرة» اخرى يصطنعها الكاتب لتمثل المعنى المناقض للماضي. وهي شخصية الحفيد، البطل، الذي يقتل جدته العجوز العاجزة (رمز المستقبل الذي يقتل رمز الماضي). وعندما تنغرس نصل سكين الحفيد في جسد الجدة العجوز، لا يجد الكاتب الا أن يميط اللثام مباشرة وبين قوسين كبيرين عن (معنى) العجوز... ورمزها: «... لقد احتك (الماضي)* بالنصل، وسقطت في خياله ثلاث قطرات حمراء، فتوهج قلبه حبوراً» (ص١٤٧).

هكذا تحيا العجوز أمامنا كياناً مجرداً، وتموت موتاً مجرداً. تحيا كفكرة وتموت كفكرة. فلا يستثير موتها دمعة ولا بهجة، لانها من الأصل ألغت. أو على الأدق، ألغى الكاتب امكانية التواصل الفني والتعاطف الانساني معها، سلباً كان هذا التعاطف أم ايجاباً.

وكل العالم من حول العجوز يبقى مجرداً وخاضعاً لعملية الترميز، يبنيه الكاتب ليسقط عليه، ومن خلاله، أشكال «وعيه» بلا حدود، بحيث تغدو كل أحداث الرواية وشخصياتها مجرد ظلال باهتة للاسقاطات الذهنية التي أرادها الكاتب.

ويفتقد الزمن الذي تحيا فيه العجوز لخصوصيته الزمنية، فهو زمن ذهني، مثلما يفتقد المكان خصوصيته ونكهته المتفردة. فالقرية التي تعيش فيها «العجوز» تظل تحتفظ بالتكوين المطلق لصورة «القرية»، دون أن تكون قادرة على توكيد حضورها في داخلنا كـ«قرية» متميزة في التفاصيل، بمعنى أن المكان الروائي، بحرصه على التجريد، فقد معناه بفقدانه لسماته الخاصة.

وكل ما يحيط بذلك، أي بـ(العجوز، الزمان، المكان) يبقى خاضعاً لبرودته الذهنية ومحتفظاً بها. فالحاكم يفقد ذاته كشخصية ويتحول إلى فكرة مطلقة، واحداث الرواية تتراكم لاهثة للتعبير عن فكرة لا ترتقي إلى مستوى الحدث الذي يُعبر في ذاته ومن داخله

---

* هكذا وردت بين القوسين في الأصل.